العقبات التى تحد من انتشار العربية السليمة واستثمارها.

للدكتور فوزى يوسف الهابط

كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر بالمنوفية.

تمهيد:

اللغة العربية – كغيرها من اللغات العالمية – تقف أمام انتشارها، واستعمالها بشكل صحيح مثمر: عقبات كثيرة، قد لا ينتبه إليها المعنيون بأمرها ، والمهمومون بشأنها!

وذلك: لأن اللغة العربية– في عصور الاحتجاج–كانت تنتشر بين الناس – العرب وغير العرب– بشكل تلقائى، ودون عناء من أصحابها الأصليين؛ لأنها كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بما تحمله من كنوز الإسلام، كالقرآن الكريم ،والحديث الشريف، بالإضافة إلى التراث الأدبي العربي القديم ، بجناحيه: الشعر والنثر.

ولذلك: فإن من كان يدخل الإسلام– من الأعاجم – وتسلبُ لُبَّه مبادئه، وجواهره: فإنه كان – تلقائياً – يبحث عما ييسر له الاطلاع على هذا الكنز ، ومعرفة خباياه!

وكان يجد أن مفتاح ذلك كله هو: إتقان اللغة العربية!

وحينئذ: كان يشد الرحال إلى موطنها – في بلاد العرب ، وفي باديتهم – حيث كان الوعاء الذى حفظ اللغة العربية، وهيأها لاستقبال القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة.

وقد روى لنا التاريخ الإسلامي العربي: قصصاً غريبة! وحكايات عجيبة ! لمسلمين – من الأعاجم –غادروا بلادهم ، وجاءوا إلى حواضر بلاد العرب، وبواديها، التى تجيد العربية ، وتحافظ عليها؛ لأنها تلقتها مباشرة من الآباء والأجداد ، وتشربتها مع ألبان الأمهات.

ثم جعل هؤلاء الأعاجم، ينهلون من هذه اللغة الشريفة ، ويعبّون من معينها الفياض، حتى ارتوَوْا ، وصارت لهم مساهمات فعَّالة ، في نشأة علوم العربية ، واتساع معاجمها.

ومن أشهر الأمثلة الدالة على ذلك:

1. سيبويه (عمرو بن عثمان بن قنبر – ت 180هـ) ذلك الذى ولد في الأهواز بفارس ، ثم هاجر أهله إلى البصرة ، فنشأ بها ، وتتلمذ على يدى الخليل بن أحمد (ت 175هـ) وغيره من عباقرة العرب ،

ثم خالط أهل البوادى، ونتج عن كل ذلك: أن ألف كتاباً – في قواعد اللغة العربية – سُمى: بالكتاب، قال عنه أبوسعيد الحسن السيرافى (ت 368 هـ) : "وعمل كتابه الذى لم يسبقه إلى مثله أحد قبله ، ولم يلحق به من بعده" ؛ وذلك لأنه لم تنخرم فيه قاعدة من القواعد العربية التى وضعها ، ولم يعترض عليه عالم من علماء اللغة المتقدمين ، أو المتأخرين ؛ لأنه استقى قواعده من كلام العرب – وعلمائهم – الذين كان يشافههم ،سواء أكانوا في البصرة، أم في بواديها.

[انظر– بتفصيل أكثر –: الكتاب – تح. عبد السلام هارون – ج 1– تقديم المحقق – الهيئة المصرية العامة للكتاب]

2. أبو عبيد القاسم بن سلام بن مسكين بن زيد ، ذلك الذى ولد بهراة (في أفغانستان) وتوفى في مكة المكرمة سنة 224هـ ، بعد أن ترك لنا ثروة لغوية ضخمة ، أشهرها: كتاب "الغريب المصنف" الذى يعد أقدم ما وصل إلينا من المعاجم اللغوية ، ذات الموضوعات المتعددة.

3. الأزهرى (أبومنصور محمد بن أحمد بن طلحة بن نوح بن الأزهر ، الهروى) الذى ولد في هراة (282هـ) وتوفي بها (370هـ) بعد أن طاف – مجبراً – ببلاد العرب ، وبواديها ؛ حيث وقع في أسر القرامطة – وهو عائد من مكة حاجاً – فأفاد من مخاطباتهم ألفاظاً جمَّة ، أودعها في أهم كتبه: "تهذيب اللغة" الذى يعد أول موسوعة لغوية عربية ، بقيت تناطح الزمن حتى وصلت إلينا كاملة، كما أنه يعد من أوثق المعاجم اللغوية.

[انظر – بتفصيل أكثر – : المعاجم العربية موضوعات وألفاظاً – د.فوزى يوسف الهابط– دار الولاء للطبع والنشر – شبين الكوم]

ولكن: ماذا يحدث في تعلم العربية الآن؟

أما الآن – وقبله بكثير–: فإن تعلم اللغة العربية – من العرب وغيرهم– يحتاج إلى معاناة ، أي معاناة!

وشاهد ذلك: مانراه من تعثر الكثيرين ، من أبناء العربية – وغيرها – في نطقها، وقراءتها ، واستثمارها، الاستثمار الأمثل.

فما أسباب ذلك؟ وما العقبات التى تحد من انتشار اللغة العربية ، واستعمالها بشكل صحيح ؛ يؤدى إلى حسن استثمارها؟!

العقبات التى تقف في طريق تعلم العربية السليمة:

أولاً: عدم وجود خطة محكمة لتعلُّمها:

حيث كان – وما يزال – تعلُّمها يتم بطريقة عشوائية ، لا تعتمد على خطة مدروسة أو محكمة ، كما يحدث في تعلم اللغة الألمانية مثلاً!

فقد أخبرني صديقى ، الذى تخرج في كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر (1969م) والذى ذهب في بعثة إلى ألمانيا الغربية (وقتها) للحصول على العالمية (الدكتوراه) في فلسفة علوم اللغة، من جامعة إيرلانجن – نورنبرح، وكان – حين ذهب – لا يعرف من الألمانية – إلا كلمات قلائل ،لاتسمن ولا تغنى من جوع لغوى!

أخبرني صديقى هذا – حين سألته متعجباً – وماذا فعلت؟ أو ماذا فُعل بك حتى تجيد الألمانية ، وتصبح كأحد أبنائها؟!

أخبرني قائلاً: هؤلاء قوم منظمون في أمورهم ، وفيما يخص لغتهم ، ولا يتركون شيئاً للصدفة! فقلت: وكيف ذلك؟

قال: حين أردت الحصول على تأشيرة الدخول إلى ألمانيا: رفضوا أن أصحب أسرتى معى ، لمدة ثلاثة أشهر؛ وبذلك سافرت وحدى.

وحين وصلت إلى مقر الجامعة الألمانية: وجدت جمعاً من الدارسين العرب، الذين جاءوا للدراسة فيها ؛ فاستبشرت خيراً بوجودهم ؛ لأننى سأجد من أتحدث معهم بلغتى العربية، لكننى اكتشفت بعد قليل: أن الجامعة وزَّعتنا على بلاد مختلفة ، وأودعت كل واحد منا مع أسرة ألمانية، قد يعرف بعضها اللغة العربية، لكنه لا يتكلم معنا بها، بل يكتفى بالإشارات ؛ لإرشادنا إلى ما نريد، ثم يعرفنا به بالألمانية!

ولذلك: كان لزاماً علينا أن نحفظ – في أسرع وقت ممكن – : أسماء الأشياء التى نراها، في المنزل ، وفي غيره ؛ حتى نستطيع التعامل مع هذه الأسرة ، ومع غيرها من الألمان.

ولم يقتصر الأمر على هذا: بل كان اليوم مقسماً إلى فترات تعليمية :

الفترة الأولى – في الصباح–: نذهب إلى معهد متخصص في تعليم الألمانية؛ لكي نتعلم قواعدها.

والفترة الثانية: كانت تعرض علينا فيها: أفلام تسجيلية، تُنطق فيها الألمانية بطريقة سليمة ، مع تكرار النطق، وظهور صور لما ينطق اسمه .

أما الفترة الثالثة: فإنها كانت بين أفراد الأسرة الألمانية ، وتعاملاتها اليومية.

وبهذا الحصار اللغوى ، وبهذه الطريقة العلمية ، العملية: استطعنا أن نجيد الألمانية في ثلاثة أشهر، حتى إننا كنا نقرأ الصحف الألمانية ، ونفهم ما فيها ، ونشاهد التلفاز الألماني ، ونفهم الحوار الدائر فيه، وبعد ذلك : صرحوا لنا باستقدام أسرنا معنا !!

فهل هذا يحدث عندنا في تعليم اللغة العربية للأجانب؟

كلا، وألف مرة: كلا!

إن الأجنبي الذى يريد تعلم العربية: يحضر إلى بلادنا ، فلا يجد أحداً يستقبله ويوجهه! إنما يأتى ، ويسأل ، ويتلطم ، حتى يجد مركزا يعلمه اللغة العربية!

وليته يتعلم منه العربية الفصحى! لكنه يتعلم اللغة العامية ، التى – إن أفادت في مجال العلاقة مع الناس (العرب) فإنها– لا تفيد في مجال : تعلم الدين الإسلامي ، أو علوم العربية!

ثم – إن هذا الأجنبي – يستغرق وقتاً طويلاً في تعلم اللغة (أو اللهجة العامية) ؛ لأنه لا يتعلمها إلا في المركز التعليمي فقط ، أما بعد أن يخرج منه فإنه يميل إلى الإختلاط – والتحدث – مع من يجيدون لغته الأصلية وبذلك: لا يحصِّل جديداً في تعلم العربية ، وقد ينسى ما أخذه في المركز التعليمى!

وهنا: تطول مدة تعلمه للغة العربية!

وماذا يحدث مع الأعاجم الذين يلتحقون بالكليات التى تدرس بالعربية؟

الذى يحدث معهم: لا يسر حبيباً للغة العربية! وذلك لعدة أسباب:

<u>الأول:</u> أن الجامعة العربية ، التى يلتحقون بها: لا تعد لهم برنامجاً عربياً خاصاً بهم؛ يعلمهم مبادئ العربية، التى يجهلونها ، وبذلك: يدخلون في بحر لغوي لجيّ ، لا يعرفون له بداية أو نهاية ، ولكنهم يحاولون – قدر جهدهم – مواجهة أمواجه المتلاطمة ؛ للوصول إلى بر الأمان ! ولكن : هيهات هيهات أن يصلوا!

فقد اضطر بعض الطلاب الأفارقة – الذين التحقوا بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر – بشبين الكوم – إلى أن يجيبوا عن أسئلة اللغة العربية – بلغتهم الفرنسية ، التى هي لغة بلادهم الرسمية ، مما عرضهم للرسوب ، وعدم مواصلة دارسة اللغة العربية!

وخير ما أستشهد به – في هذا المجال – هو حالة أسرة مسلمة ، قَدِمت من جنوب شرق آسيا ، لدراسة اللغة العربية ، بجامعة الأزهر ، وكان قوامها: طالبا وزوجته ، وابنهما الصغير (في العاشرة من عمره حين رأيته)

والتحق الطالب: بكلية اللغة العربية بالقاهرة ، والتحقت الزوجة : بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة.

وتخرج كل منهما ، واستطاعت الزوجة أن تلتحق بالدراسات العليا – قسم أصول اللغة ، وأمضت سنتين في دراسة تمهيدية للتخصص (الماجستير) ثم سجلت رسالتها فيه.

وكان من حظى: أن أسند إلىَّ الإشراف على رسالتها تلك ، فماذا وجدت حالتها في اللغة العربية ، بعد أن درستها على مدى ست سنوات؟

وجدتها – للأسف الشديد – لا تكاد تُبين ، بل ولا تكاد تنطق الأصوات العربية كما ينبغى ؛ ولذلك : كنت – أحياناً – أستعيدها القول : مرة ، واثنتين لكي أفهم ما تقوله!

وحين زارتنى – مع زوجها وولدها – لتسليمى بعضا من نتاجها في الرسالة: وجدت حالة زوجها اللغوية: تماثل حالتها تماماً ، على الرغم من أنه خريج كلية اللغة العربية!!

أما ولدهما: فقد وجدته ينطق العربية بسهولة ويسر ، إلى حد كبير! وقد سألت عن السبب في تميزه اللغوى العربي عن والديه: فعرفت أنه يدرس في مدرسة مصرية ، وأنه يختلط – طوال يومه – بأقرانه من المصريين ، سواء في المدرسة ، أو بعد العصر ، حين ينزل للعب مع جيرانه من الأطفال المصريين ؛ وبذلك : ضاقت الفترة التى يقضيها مع أبويه (الأعجميين) واتسعت – في مقابلها – الفترة التى يقضيها مع أقرانه من التلاميذ المصريين.

وبذلك – أيضاً – ازداد احتكاكه اللغوى مع المصريين ، وقلّ ذلك الاحتكاك مع والديه ؛ مما أتاح له فرصة يتعود فيها لسانه على نطق الأصوات العربية ، نطقاً سليماً إلي حد كبير ، بل ونطق الكلمات والجمل العربية كاملة ، كما ينطقها المصريون.

أما أبواه : فإنهما لم يحتكا الاحتكاك اللغوى الكافى ، بمن يدرّسون لهما؛ بسبب ضعفهما اللغوى (العربي) والذى يدفعهما إلى الانكماش ، وعدم التحدث بالعربية إلا للضرورة.

كما أنهما لا يختلطان بجيرانهما – من المصرين – إلا في حدود ضيقة ، لاتتيح لهما فرصة الاحتكاك اللغوى المناسبة.

وإضافة إلى ذلك : فإنهما يستخدمان لغتهما الأصلية في الحوار والتفاهم! وهذا كله : أبعدهما عن إتقان اللغة العربية كما ينبغى!!

العقبة الثانية في طريق تعلم العربية السليمة:

أن من يُدَرِّسونها: لا ينطقون بالعربية الفصحى – إلا من عصم الله – وإنما ينطقون بلهجتهم العامية ، التى تختلف باختلاف مناطق من يدرّسون! وهنا تكون الطامة الكبرى!

فالتدريس بالعامية ليس مشكلة للأجانب فقط ، وإنما هو مشكلة للطلاب العرب أيضاً ، خاصة : إذا اختلفت بيئاتهم عن بيئات أساتذتهم !

وأذكر أننى عندما كنت أُدرِّس في كلية اللغة العربية – بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وبها عدد كبير من الطلاب الأعاجم – أذكر أننى كنت ألتزم – في محاضراتى – بالفصحى ، وبالنطق العربي السليم ، مما جعل الطلاب – بمختلف جنسياتهم – يمتدحون هذا ، ويقولون: إنه يساعدهم على سرعة الفهم وجودة التحصيل!

ولم يكن الأمر قاصراً على الطلاب غير العرب ؛ بل تعداه إلى الطلاب العرب أيضاً ، والذين زادو على ذلك : بأن شكوا من بعض الأساتذة الزملاء ، الذين يدرّسون بلغتهم العامية الخاصة – والبعيدة عن لهجة هؤلاء الطلاب العرب – فتفوت – على هؤلاء الطلاب – معرفة أشياء كثيرة ، مما يشعرهم بالعناء والضيق!

العقبة الثالثة: طغيان اللهجات العامية على فصحى العربية :

حيث أصبح العرب – على اختلاف بلدانهم وأصقاعهم – يتعصبون للهجاتهم العامية الخاصة، ويعدونها كبطاقاتهم الشخصية ، التى تنبئ عن أن هذا سعودى ، وأن هذا يمنى ، وأن ذاك خليجى ، وان هذا سودانى ، وأن ذاك مصرى ، وأن هذا شامى ، وهكذا!

وقد شجعتهم – على هذا التفرق اللهجي – : أجهزة الإعلام المختلفة ، التى تنحو– في برامجها – هذا النحو، المفتت للعربية الأم ؛ حيث حلت اللهجات المحلية – في التخاطب – مكان العربية الأم ، التى أصبحت صعبة الحلول على ألسنتهم! بل وغريبة على وسيلة التعبير لديهم!

ومن ثم: فإنهم يستخدمون هذه العاميات ، في التخاطب مع غيرهم ، بل وفي التدريس بالمدارس والجامعات!

واللهجات العامية – بطبيعتها – غير كاملة الأهلية ، في مجالات التدريس ، وإلقاء المحاضرات ؛ لأنها تغيب عنها كثير من مفردات العربية الأم ، ومصطلحاتها ؛ التى لم تعد تستعمل في مجالات التخاطب العادي ؛ مما يدفع بعض الأساتذة : إلى استخدام المصطلحات الأعجمية ، مكان المصطلحات العربية ، التى غابت عن أذهانهم ، وتخلت عنها ألسنتهم.

وقد يكون إستخدام هذه المصطلحات الأعجمية: من باب التقليد ، الذى يعد مستهجنا في اللغات القوية ، التى تستغنى – بمادتها اللغوية ، وألفاظها الثرية – عن ألفاظ ومصطلحات غيرها ، مهما علا سقفها! وفي الذهن : أهل اللغة الفرنسية ، الذين يفرضون غرامات مالية ، على من يستخدم منهم ألفاظاً غير فرنسية!

ونتيجة لهذا الذى حدث – ويحدث – في اللهجات العربية الحديثة : أصبحت بعض هذه اللهجات ، غريبة عن العربية الأم! بل وتحتاج إلى من يترجمها إلى اللغة العربية الأم!

ومثال ذلك : ماحدث للهجات المغرب العربي ! فإنها – أثناء التخاطب – تحتاج إلى من يترجم مصطلحاتها ، وكلماتها التى انحرفت كثيراً عن جادة العربية الأم!

وهذا ما نلحظه ، في كثير من الأحاديث والمحاورات التليفزيونية ، التى لا يكاد أهل المشرق العربي: يعرفون معانيها ! مما يضطر المحطات الفضائية إلى كتابة ترجمة لها باللغة العربية ، وكأنها لغة أجنبية!

وقد كان ذلك كذلك: بسبب سيطرة اللغة الإستعمارية الفرنسية ، على ألسنة أبناء هذه الشعوب ، مع إهمال تدريس وتلقين اللغة العربية – لأبناء هذه الشعوب ، العربية الأصل – في معظم أرجاء البلاد!

وليت أن الأمر ، اقتصر على ذلك : بل إن بعض اللهجات المغرقة في محليتها ، توالدت فيها: ألفاظ جديدة ، ومصطلحات جديدة ، وطريقة جديدة للنطق : أبعدتها – رويدا ، رويدا – عن اللغة العربية الأم ، حتى تحولت إلى لغة جديدة ، وأضحت علاقتها –باللغة العربية الأم – واهنة ؛ حتى إن أبناءها : يطالبون بالاعتراف بلهجتهم المحلية ، وجعلها لغة قومية ؛ لها مكان في أجهزة الإعلام ، ولها الأولوية – في التدريس – لأبنائهم!

وهذا : كما حدث من أبناء اللغة (أو اللهجة) الأمازيغية في جنوب الجزائر.

ويعد هذا: انفصالاً ، له ماله من الخطورة ؛ لأن هذه اللهجات لا تملك مقومات اللغة الأم ، من حيث : القواعد ، والمفردات ، والمصطلحات الكثيرة ، التى تيسر اتصال العرب ببعضهم ، كما تيسر اتصالهم بالعالم الخارجى؛ لأن اللغة العربية الآن : إحدى اللغات العالمية ، المعترف بها في الأمم المتحدة ، والمؤتمرات الدولية.

وأخطر ما في هذه الدعوى الانفصالية : أن أهل هذه اللهجات المحلية – والمغرقة في محليتها – يفقدون – بتعصبهم للهجاتهم – : اتصالهم – السهل المأنوس – بباقى إخوانهم من العرب!

كما يفقدون شيئاً مهماً جداً ، وهو : اتصالهم بالقرآن الكريم، والحديث الشريف ، اللذين يعدان : أهم أسس التشريع الإسلامي!

كما يفقد أبناؤهم : القدرة على قراءتهما ؛ وبذلك تنشأ – عندهم – أجيال مسلمة اسماً ، ولكن ليس لها من اسمها نصيب!!

وكل ذلك: بسبب التعصب للهجاتهم ، وبعدهم عن لغتهم الأم ، حاملة القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والتراث الأدبي العربي الخالد!!

العقبة الرابعة في طريق تعلم العربية السليمة:

أن الطلاب الأعاجم – عندما يفدون إلى إحدى البلاد العربية ؛ لتعلم العربية السليمة، والدين الإسلامى الصحيح: **لا يُفَرّق بينهم – في السكن –** أول الأمر ، كما تفعل ألمانيا مع الوافدين إليها للتعلم ، بل يسكنون معاً ، في مكان واحد!

ومثال ذلك : ما حدث مع هؤلاء الطلاب ، في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وفي الأزهر الشريف بالقاهرة.

حيث خصصت – في هذين البلدين – أماكن محددة ، يسكن فيها هؤلاء الطلاب ؛ فلا تتاح لهم فرص الاحتكاك الكاملة بأبناء العربية.

وأذكر – بهذه المناسبة – أن طلاباً من المسلمين – غير العرب – الذين كانوا يدرسون في الجامعة الإسلامية ، بالمدينة المنورة : جاءوا إلى – أثناء تدريسى في هذه الجامعة – وأفادوني أنهم يريدون أن يجيدوا اللغة العربية ، ثم سألوا عن السبيل إلى ذلك.

وقد أجبتهم عن سؤالهم – في محاضرة بقاعة محاضرات الجامعة – وقلت لهم:

إن اللغة العربية – مثل جميع اللغات – لا تُؤخذ إلا بالتلقى والاحتكاك ، وبغيرهما : ستظل اللغة عصية عليكم!

ثم ضربت لهم المثل بما حدث مع الأعاجم الأولين ، الذين دخلوا الإسلام، وأرادوا إتقان لغة القرآن الكريم ، فإنهم لم يدرسوا قواعد هذه اللغة في بلادهم ؛ وإنما جاءوا إلى بلاد العرب ، التى يتحدث أهلها بالعربية الفصحى ، وخالطوهم ، واحتكوا بهم ، حتى استقامت العربية على ألسنتهم ، فتحدثوا بها ، وقرأوا ، وكتبوا ، حتى نبغ منهم من نبغ في علوم العربية ، وهم كُثْر. ثم قلت لهؤلاء الطلاب: إنكم هنا – في المدينة المنورة – تسكنون في مساكن الجامعة ، وكل طلاب بلد يسكنون في جناح خاص بهم ؛ وهذا لا يتيح أي فرصة للاحتكاك اللغوى مع الآخرين ، المغايرين لكم في اللغة ؛ لأنكم تلجأون – في محادثاتكم – إلى لغاتكم الأصلية ، ولا تقربون اللغة العربية إلا في قاعات الدرس!

وقاعات الدرس: فرص الاحتكاك اللغوى – فيها – ضئيلة ، لا تسمن ولا تغنى من جوع لغوى.

ثم إنكم تسرعون – عقب انتهاء المحاضرات – إلى أماكن إقامتكم ، وتمارسون عاداتكم اللغوية الخاصة.

وما يحدث عندكم هنا (في الجامعة الإسلامية) يحدث مثله في مدينة البعوث الإسلامية – التابعة للأزهر الشريف – بالقاهرة.

وبذلك: لا يستفيد أبناء المسلمين – من غير العرب – من فرصة تواجدهم في المدينة المنورة مثلاً ، أو في القاهرة ، وغاية ما يحصلون عليه : شهادات من الجامعات العربية ، تفيد أنهم درسوا اللغة العربية ، والدين الإسلامي ، ولكن لغتهم العربية – عند معظمهم – لغة عرجاء ، لا تكاد تبين ، ولا تصلح للاستثمار في أي مجال دعوى أو تعليمى!

بم أوصيت طلاب الجامعة الإسلامية الأعاجم؟

أوصيتهم قائلاً: إذا أردتم أن تجيدوا اللغة العربية كأهلها : فاطرحوا لغاتكم الأصلية جانباً (مؤقتاً) واستبدلوا بها : اللغة العربية ، حتى في تخاطبكم مع أهل بلدكم ، أو أبناء لغتكم الأصلية.

وبذلك تستطيعون – كما استطاع أسلافكم الأوائل – أن تكونوا ممن يشار إليهم بالبنان ، في إجادة اللغة العربية ، وإجادة قراءة ما تحمله من كنوز.

وأضرب لكم مثلاً حيّاً– على ذلك – بالزميل الكريم : مأمون عبد القيوم ، رئيس جزر المالديف السابق:

فهذا الرجل: منذ أن جاء من بلده إلى القاهرة – ليدرس في الأزهر الشريف – كان يسكن في سكن خاص ، ويختلط بالمصريين اختلاطاً كبيراً – أثّر في لغته – حتى إننى عندما قابلته لأول مرة – في كلية الشريعة – جامعة الأزهر – حسبته – لأول وهلة – مصرياً؛ بسبب لغته العربية الواضحة ، ونطقه الصحيح لأصواتها ، وكلماتها! إلا أن زميلى – المصرى ، الذى عرفنى به – أخبرنى : أنه من جزر المالديف ، وأنه جاء إلى مصر؛ليدرس في الأزهر الشريف ، منذ نعومة أظفاره ، وأنه كان ملازما لنا في دراستنا ، وجدنا ولهونا البرئ! وهذا هو السبب في إتقانه الشديد للغة العربية ؛ حتى إنه كان ينشئ بها قصائد شعرية ، موزونة ، ومقفاة!

وعندما سافر إلى بلاده – بعد إنتهاء دراسته في جامعة الأزهر – كان نموذجاً للأزهرى الذى يؤدى رسالته على أكمل وجه ؛ مما جعله يتبوأ أعلى المناصب ؛ حتى وصل إلى سُدَّة الحكم ، في رئاسة الجمهورية!

ثم قلت – لطلابي في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة –: هل يريد كل منكم أن يكون ذا شأن عال في بلاده؟ إذن: اتبعوا الطريق الذى سار عليه ذلك النموذج الفريد!

العقبة الخامسة في طريق تعلم العربية السليمة:

اهتمام كثير من العرب : بتدريس اللغات الأجنبية – لأولادهم – أكثر من اهتمامهم بتدريس العربية لهم! وهذا يظهر في إقبال ذوى الثراء ، على إلحاق أولادهم – منذ نعومة أظفارهم – بالمدارس الأجنبية ، التى تُدرَّس مناهجها باللغات الأوربية (كالإنجليزية ، أو الفرنسية ، أو الألمانية) ويغرق الطفل في هذا المحيط اللغوى الأجنبي الذى يحيط به! ولا يكاد يأخذ من اللغة العربية – أو الدين الإسلامي – إلا الفتات الذى لا يغنى ، ولا يسمن من جوع ! فيتحول لسانه إلى لسان أعجمى ؛ لا يكاد يعرف من العربية إلا رسمها ، ولا يكاد يعرف من الدين الإسلامي إلا اسمه! أما التفاصيل ، والتطبيقات ، والقواعد ، والأركان: فإنها تذهب في خبر كان!

وقد سمعت طالبة – في كلية التجارة – قسم إنجليزي – قابلتها الإعلامية آمال فهمى – في برنامجها المشهور: على الناصية – في شهر أكتوبر 2013م:

أقول: سمعت هذه الطالبة، وهى تكثر من العبارات الأجنبية في كلامها، ولما سألتها – الإذاعية آمال فهمى – عن السر في ذلك ، وعن سر دخولها كلية التجارة قسم إنجليزى ، أجابت الطالبة قائلة: لأننى درست – في جميع مراحلي التعليمية – باللغة الإنجليزية ، لغة أولى ، ولذلك تغيب عنى كثير من كلمات العربية وأكتب الأرقام بالإنجليزية ، لأننى لا أعرفها بالعربية!!

والغريب: أنك إذا سألت ولى الأمر – الذى يوجه ولده هذه الوجهة – عن السبب في ذلك التوجه ، الذى يضيع الدين واللغة القومية – في غالب الأحيان – أخبرك قائلاً – وهو منتفخ الأوداج – فخراً بولده وتعليمه الأجنبي –: هذه اللغات الأجنبية ، هي لغات المستقبل ؛ فهى التى تمشى في البنوك أو المصارف، وهي التى تطلب في الشركات الأجنبية ذات المرتبات الأعلى ، والمزايا العديدة!!

أمثلة ممن درسوا في المدارس الحكومية ، وأصبحوا أعلاماً:

والنظرة السابقة: نظرة قاصرة ، بلا شك ، ولا تنظر إلا إلى جانب واحد من الكوب! فكثير ممن درسوا في المدارس الحكومية المصرية – على سبيل المثال– واهتموا بمناهج العربية – إلى جوار الإنجليزية التى درسوها بعد أن شبوا عن الطوق–: نبغوا ووصلوا إلى أعلى المراكز العلمية ، وأقبلت الدنيا عليهم طواعية ، ونفعوا أنفسهم وأوطانهم ، وكانوا خير دعاية لعروبتهم ، وللغتهم العربية!

ومن أشهرهم:

1. الدكتور أحمد زويل (1946 م – ...)

الحائز على جائزة الملك فيصل في الكيمياء سنة 1989م

والمتوج بجائزة نوبل العالمية في الكيمياء سنة 1999م

هذا العالم الذى ينال احترام وتقدير العالم العربي ، والعالم الغربي : خريج مدارس دمنهور الحكومية ، ثم كلية العلوم بجامعة الإسكندرية.

2. الأستاذ الكبير نجيب محفوظ (1991 – 2006م)

عميد القصة العربية، والحائز على جائزة نوبل العالمية في الأدب سنة 1988م فهو ابن مدارس القاهرة الحكومية ، وخريج كلية الآداب – قسم الفلسفة – بجامعة القاهرة – 1934م

3. الدكتور مصطفى السيد (1933 م – .....)

أول مصرى وعربي: يحصل على قلادة العلوم الوطنية الأمريكية – التى تعد أعلى وسام أمريكي في العلوم – لإنجازاته في مجال النانو تكنولوجى ، وتطبيقه لهذه التكنولوجيا ، باستخدام مركبات الذهب الدقيقة في علاج مرض السرطان!

فهو لم يرتد المدارس ذات اللغات الأجنبية الخاصة ، ثم إنه تخرج في كلية العلوم جامعة عين شمس الحكومية سنة 1953م.

كما أن كثيراً ممن درسوا في الكتاتيب ، ثم في الأزهر الشريف ، أصبحوا نجوماً يشار إليهم بالبنان.

ومن أشهرهم:

1. الدكتور طه حسين على سلامة (1889 – 1973م)

والذى ولد بعزبة الكيلو – مركز مغاغة – محافظة المنيا.

ودرس – في قريته – بكتاب القرية ، لصاحبه الشيخ محمد جاد الرب.

ثم دخل الأزهر سنة 1902م للتزود من العلوم الدينية والعربية ، ودفعه طموحه ، ونهمه للعلم أن ينتسب للجامعة المصرية (فؤاد الأول) وينال منها الدكتوراه ، ثم يذهب مبتعثاً إلى فرنسا للاستزادة من العلم ، ويعود إلى مصر حاملاً دكتوراه أخرى ، ولا يقف به طموحه عند حد !

حتى يعين وزيراً للمعارف ، ويطلق صيحته الكبرى : أن التعليم كالماء والهواء ، حق لكل مواطن ، ثم يلقب بعميد العربي .. وكل ذلك وهو خريج كتاب الشيخ محمد جاد الرب، ولم يتخرج في مدرسة أجنبية مشهورة!!

2. الشيخ محمد متولي الشعراوى (1911 – 1998م) الذى ولد بقرية دقادوس – ميت غمر – دقهلية ، وتعلم في كتاب القرية ، ثم التحق بالأزهر الشريف ، وتخرج في كلية اللغة العربية سنة 1941م ، وصار – بثقافته العربية والإسلامية – نجما لا يبارى ، وكوكبا دريا في دنيا الثقافة الإسلامية والعربية.

فكل هؤلاء – وغيرهم كثير – تعلموا في المدارس العادية ، أو الأزهر الشريف ، وكان تفوقهم – في لغتهم العربية – سبباً في تفوقهم العلمى ، واحتلالهم لتلك المكانة العلمية العالية ، بل والعالمية!!

العقبة السادسة : ازدواج تعليم اللغات بدءاً من مرحلة الروضة:

ففي الوقت الذى نادى فيه بعض الخبراء المصريين – المتخصصين بالتربية والتعليم – بضرورة تأجيل تعليم الأطفال اللغات الأجنبية – إلى جوار العربية – حتى بلوغهم سن التاسعة ؛ وذلك: حفاظاً على اللغة الأم ، وضمان نقائها ، واستقرارها ، لغة سليقة لدى الأطفال والناشئة:

نجد أن التعليم في مصر – وفي كثير من بلاد العرب – يهتم بتدريس اللغات الأجنبية – إلى جوار العربية – بدءاً من مرحلة الروضة!وهذا يخالف ما أجمع عليه خبراء التربية ؛ حيث يؤكد هذا المعنى: الدكتور فتحى يونس (أستاذ المناهج وطرق التدريس باللغة العربية – كلية التربية – جامعة عين شمس) ثم يستشهد بما تفعله بعض الأمم الحريصة على سلامة لغاتها ، فيقول: إن وزارة التعليم – في إنجلترا – أصدرت قراراً بتأخير تعليم اللغات الأجنبية ، للأطفال الإنجليز ، حتى سن الحادية عشرة، وذلك لسببين مهمين:

أولهما: تأكيد إلمام الأطفال بلغتهم القومية ؛ باعتبارها أساس الهوية الوطنية ، والتى تشكل الحد الأدنى للتواصل بين أبناء الأمة الواحدة.

وآخرهما: يتمثل في: أن اللغة القومية ، هي التى تبنى الفكر والمعارف.

وإلمام الأطفال بها والتمكن منها – في سن صغيرة –: يساعدهم على التفاعل مع من حولهم ، واستقبال المعلومات والمعارف ، وفهمها فهماً جيداً ، والتعبير عنها بصورة واضحة!

ومما لاشك فيه: أن تعلم الأطفال للغات أجنبية – في هذه السن المبكرة – يؤدى إلى إهمال اللغة الأم ، كما حدث للطالبة التى لا تعرف الكتابة أو الأرقام العربية ، والتى سبق ذكرها.

وليس هذا الذى أقوله: كلاماً نظرياً فقط ، بل هو كلام يعتمد على الدراسات العلمية ، العملية ، المختلفة ، التى أثبتت صدقه!

ومن هذه الدراسات:

1. دراسة كويتية ، أجريت على عينات من التلاميذ ، الدارسين للعربية والإنجليزية معاً . أو الدارسين للعربية فقط.

فقد اختار الباحث – لإجراء بحثه – مجموعتين من تلاميذ المرحلة الابتدائية (من الصف الأول ، حتى الصف الثالث الابتدائي) وإحداهما درست اللغة العربية وحدها ، والأخرى : درست الإنجليزية مع العربية ، منذ الصف الأول حتى الصف الثالث الابتدائي .

وبعد المقارنة بينهما ، وتحليل النتائج: أظهر البحث : أن الذين درسوا العربية فقط: تفوقوا في تحصيلهم مقرر اللغة العربية. بجميع مهاراته ، مثل: القراءة ، والكتابة ، والقواعد ، والمفردات. كما دل – البحث– على تدنّى تحصيل تلك المهارات ، لدى المجموعة الأخرى ، المماثلة ، والتى درست اللغتين معاً!!

2. وهناك دراسة أخرى – أجريت بجامعة الزقازيق – حول نوع التأثير الذى يحدثه التبكير بتعليم لغة أجنبية ، على مستوى النمو اللغوى في لغة الطفل الأصلية. وقد توصل هذا البحث – أيضاً – إلى أن مستوى النمو اللغوى – في لغة الطفل الأصلية – يتأخر لدى الأطفال الذين يدرسون لغات أجنبية في سن مبكرة ، عن أقرانهم الذين لا يدرسون لغات أجنبية بجوار العربية.

3. وفي عام 2003م نشرت دراسة في مجلة التربية بجامعة أسيوط ، حول أثر الازدواجية اللغوية ، على اكتساب تلاميذ المدارس الابتدائية لمهارات اللغة العربية ، وتحصيلهم اللغوى. وتوصلت – هذه الدراسة أيضاً– إلى أن الثنائية اللغوية: تؤثر بالسلب على المهارات اللغوية الخاصة بلغة الطفل الأصلية.

[انظر: مقال: أمل الشريف: هل تعلُّم اللغات الأجنبية في سن مبكرة يؤثر على اللغة الأم؟ جريدة الأهرام – النسخة الرقمية بتاريخ 9/12/2011 م]

وبنتائج تلك البحوث العلمية: تكون جهيزة قد قطعت قول كل خطيب! وأثبتت أن التلهف على حشو أدمغة التلاميذ الصغار بأكثر من لغة: يؤثر تأثيراً سلبياً على لغتهم الأم ، وقد يؤدى إلى عدم اهتمامهم بها ، وبالتالى: تدنّى مستواهم فيها؛ فلا يجيدونها ، ولا يجيدون اللغة الأجنبية الأخرى!!

فهل يستمع أحد مسئول ، أو يقرأ ؟ وهل يستطيع أن يتخذ ما يناسب من إجراءات ، توقف هذه المقتلة اللغوية ، التى تؤدى إلى محو شخصية الأطفال القومية ، وإضعاف سليقتهم اللغوية ، العربية ، السليمة؟!!

وحينئذ: نبكى على اللبن المسكوب ، مع أن البكاء لن يعيد اللبن إلى إنائه!!

التوصيـــــــات:

وأخرج مما سبق – في البحث – بالتوصيات التالية ، التى أرجو لها أن لا تكون صرخة في وادٍ لا يسكنه أحد!

أولاً: الاهتمام بطالبي اللغة العربية الأجانب ، وإعداد خطة محكمة لتعليمهم إياها ، في أقصر وقت ممكن.

ثانياً: عدم قبول – غير العرب – في الكليات التى تدرس موادها باللغة العربية ، إلا إذا اجتازوا اختباراً – في اللغة العربية – ينبئ عن إتقانهم للغة العرب.

ثالثاً: تدريب المعلمين على تدريس موادهم باللغة العربية الفصحى؛ حتى يتعود تلاميذهم على النطق السليم للعربية.

رابعاً: توجيه وسائل الإعلام المختلفة، إلى استعمال العربية الفصحى – ونبذ العامية – في برامجها وإعلاناتها – كما كان يحدث قديماً – حتى يتعود مستقبلوها ، على نغمات ، وكلمات العربية الفصحى.

خامساً: توعية الآباء بفائدة دراسة اللغة الأم وحدها، في مرحلتى الروضة والابتدائية .

سادساً: توجيه الحكومات إلى إلغاء دراسة اللغات الأجنبية ، مع اللغة العربية، في المراحل التعليمية الأولى (الروضة + الابتدائي) حتى يستطيع الأطفال أن يجيدوا لغتهم القومية ، لأنها أساس الهوية الوطنية ، كما أنها التى تشكل الحد الأدنى من التواصل ، والتفاعل ، بين أبناء الأمة الواحدة ، كما أنها تساعدهم على إستقبال المعلومات والمعارف ، وفهمها فهماً جيداً ، والتعبير عنها بصورة واضحة.

وبذلك كله: تستطيع اللغة العربية ، أن تقف على ساقيها ، وأن يستسيغها العربي والأعجمى ؛ وبذلك : يمكن استثمارها في كل المجالات المتاحة ؛ لأنها تصبح لغة سليقة ، ولغة علم ، ولغة كتابة ، ولغة قراءة.

والله الموفق ، والهادى إلى سواء السبيل،

13 من المحرم 1435هـ **أ.د. فوزى يوسف الهابط**

17 من نوفمبر 2013م **أستاذ أصول اللغة– المتفرغ**

كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر

فرع المنوفية.